منبر الإسلام
أكتوبر ١٩٦٣

الطموح والوفاق في الحركة الثقافية الإسلامية

الأستاذ حسن فتح الباب

لم يكد يحين عهد الخلفاء الراشدين حتى كانت المبادىء الاسلامية التي دعا اليها النبي في ميدان العلم والثقافة وطبقها بصورة عملية قد استقرت في النفوس ، فاصبح العلم حقا مقدسا لا يسأل عليه اجر ، لكل فرد مطلق الحرية في التماسه أيان اهتدى اليه ، فلا احرار ولا عبيد ، ولا علية ولا سوقة ، ولا اثرياء ولا فقراء . وانما المسلمون سواسية في هذا الحق ، فقلما يتساوون في سائر الحقوق .

فالعلم من عند الله والفرص متكافئة للجميع بلا ادنى تفرقة بينهم ، وهذه بيوت الله مفتوحة للعلم والعبادة ، والفقهاء والعلماء في خدمة الاسلام والمسلمين ، وبلاد الله واسعة لمن شاء أن يهاجر في سبيل البحث العلمي لا يحده قيد ولا يقف دونه عائق .

والعلم غير قاصر على التفقه في امور الدين وانما يتناول كذلك امور الدنيا ، فالاسلام لا يحرم العلوم الدنيوية بل يدعو اليها ويحث عليها ويأمر بالنظر في خلق السموات والأرض وفي تأمل الحياة والوجود للاهتداء الى وجود الخالق ووحدة الكون .

وكان من اثر استقرار هذه المبادىء ان نشأت في ديار الإسلام حركة علمية لا عهد للعرب بها من قبل ، وبنى كثير من المساجد والكتاتيب التي الحقت بها . واستمر التطور حتى انشئت الى جانب هذه الكتاتيب التي قصد منها تعليم الصغار ، مدارس خاصة لتعليم الكبار .

وبفضل هذا التشجيع الذي اقتدى فيه اولو الامر من المسلمين بالنبي الكريم اصبح الطموح العلمي ديدن الجميع ، فلا تخاذل ولا تخلف ، وانما نحد للباس والجهل ووفاء بحق النفس في التزود بالمعرفة ، ورفع مستواها بالحكمة وحسن التبصر ، وأداء لحق الدين والدولة في المشاركة الايجابية في النهوض بهما من طريق العلم والعمل معا .

ومن هنا فجرت طاقات الجماهير وتفتحت كل الزهور حتى لقد برز من ابناء المسلمين في مختلف الآداب والعلوم من لم يكن آباؤهم يملكون قوت يومهم ، فاصبحوا معلمين للشعب الاسلامي ورواداً لسائر الشعوب .

غير ان هذه المبادىء السامية لم تكن لتؤتي ثمارها تلك لولا ما احاطها به الإسلام من ضمانات اساسية تحميها وتقيها مغبة الانحراف بها الى غير ما قصد منها .

فالهدف الاسمى من التعليم والتعلم هو تثبيت ايمان الفرد بالاسلام ، وتوجيهه الى العمل الصالح لخدمة الشريعة والمجتمع والوصول من ذلك الى تحقيق السلام والرخاء والرفاهية للانسانية جمعاء .

ومن ثم ينبغي ان ينزه العلم عن كل ما يشوب تلك الغايات النبيلة وان يظل في مستوى جليل يعلو عن دنايا القول وصغائر الفعل حتى يظل دائما سبيلا الى الحق والعدل والخير .

والعلماء كما ورد في الحديث هم ورثة الانبياء ، فليس بعالم من تنكر للقيم الاسلامية في المجال العلمي والثقافي مهما بلغ من علمه ، بل ان جرمه اشد ممن لم ينل مثل حظه من المعرفة ، ذلك انه قد يشفع لغير العالم اذا انحرف جهله وحسن نيته ، أما العالم فهو في مرتبة القادة والهداة فلا شفيع له اذا حاد عن جادة السبيل لأنه حينئذ لا يقتصر عليه بل يتعداه الى تلاميذه ومريديه فيسيء الى الأمة جمعاء وقد ينال باساءته الانسانية كلها .

ومن أجل ذلك قصد الاسلام الى جعل العلم وسيلة لاقرار الحق ومكافحة الظلم والطغيان ولا سبيل الى ذلك الا بتطبيق العلم على العمل ، فالعالم الذى يتصدى لارشاد عامة الشعب هو منارة لهم فى قوله وسلوكه بل ان تأثرهم باعماله وترسمهم خطاه أعمق من احتذائهم باقواله .

والعالم المؤمن الحق هو الذى يبدأ بنفسه فيتوخى العدل فى معاملة الآخرين ولا يدعى لنفسه ـ بما أوتى من فضل العلم ـ ميزة دون خلق الله ، بل يؤثر غيره على نفسه . قال تعالى : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم » .

ولا خير فى علم لا يهذب النفس ويصقل من طباعها الجافية فيطهرها من نزواتها ، ويحرك ازكى دوافعها الى الاستمساك بالمثل العليا .

ذلك ان النفس الانسانية يتنازعها عاملا الخير والشر ، والناس فريقان ، فريق تسلم فيه قوة الخير ، فيعرف الحق ويعمل به فى خاصة نفسه ، ثم يندفع بحكم الرحم الانسانى وابتغاء مرضاة الله ومحبة الخير لعباده ، الى تكميل الناس بما كمل به نفسه ، فيدعوهم الى الحق ، ويعمل جهده فى انقاذهم من الباطل .

وفريق آخر تنمو فى نفسه قوة الشر بتأثير بيئة فاسدة أو وراء ضالة أو شهوة طائشة ، وبذلك يتخيل أن ايمانه بما قر فى الضمير الانسانى انه حق ، يزلزل مكانته فى قومه ، أو يسد عليه منافذ شهوته ، فينفر منه ويعرض عنه ، ويقع عنده موقع السخط والانكار ، فينطلق فى الحياة كالوحش فى الفلاة يفترس من الاحياء ما امكنه أن يفترس ، وينتهك من الأعراض ما امكنه أن ينتهك ، ويستلب من الاموال ما امكنه أن يستلب ، ولا يقف فى ذلك عند نفسه ، بل يشتط ويعمل جاهدا فى صرف الناس عن الحق وتأليبهم عليه ، يلبسه بالباطل ويلقى عليه الريبة والشكوك ليطمس معالمه ويطفىء نوره .

وقد كان رسل الله وأتباعهم من بعدهم ، يمثلون فى العصور المختلفة ، الفريق الأول ، يعرفون الحق ، ويشرق عليهم نوره فيؤمنون به ، ويخلصون فى الدعوة اليه .

وكان غيرهم من رؤوس الكفر والنفاق ودعاة الاباحية ارباب الجاه الزائف ، أو السلطان الغاشم ، والتصور الفاسد ، الذى ابتلى الله بهم عباده المخلصين فى كل عصر وفى كل مكان ، يمثلون الفريق الثانى ، يكفرون بالحق ، ويصدون عن سبيله ، ويفتنون الناس فيه .

* * *

ومن ثم وجب على العالم فى المجتمع الاسلامى ان يكون فى طليعة الفريق الأول فهو صاحب رسالة ، دعوته الحق وغايته السلام ، وهو مجاهد فى سبيل الله « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » وهو خصم لدود لاعداء الحق يكافحهم ويضعف سلطانهم ويضيق عليهم ، ويكشف اراجيفهم وكيدهم حتى ترتد أسلحتهم الى نحورهم .

وسبيل العالم الى ذلك ان يتسلح بالارادة ويخلص فى دعوته ويصبر على مشاقها « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . « ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين » .

وفى اطار هذه القيم الاسلامية مضى العلماء المسلمون فى عصر الخلفاء ينشرون نور العلم فى الآفاق ، فلا احتكار للعلم ، كما كانت عليه الحال قبل ظهور الاسلام فى بلاد الفرس والرومان ، يوم كانت الثقافة قصرا على بضعة نفر من ذوى السلطان تمارسه وحدها وتخول لنفسها به ميزات على غيرها من الكثرة المحرومة منه .

ولا تعصب أو تفرقة عنصرية فى حق العلم ، فالمسلمون سواء فيه وان اختلفت أوطانهم وألسنتهم وألوانهم ، حتى العبيد لا يحرمون هذا الحق ، بل لا يحرمه الأعداء أنفسهم .

ولا استغلال للعلم فى تحقيق منفعة خاصة او شهوة ذاتية وانما العلم فى خدمة الدين والمجتمع والأسرة الانسانية كلها باجيالها الحاضرة والمقبلة معا .

ولا غرور أو تسلط باسم العلم ، فالعلم تواضع وايثار وتضحية .

ولقد اسفر تمسك علماء المسلمين وائمتهم بهذه المبادىء والقيم الاسلامية عن نهضة علمية كبرى سارت على جناحين من الطموح والوفاق .

* * *

اما الطموح فكان ثمرة لتشجيع العلم والعلماء ، وفتح النوافذ جميعا لتلقى انواره الباهرة ، واذكاء المواهب الفكرية وتنمية الطاقات الناشئة ، فلم يكن احب الى قلب المسلم ولا اعز لديه من ان يجد فى طلب العلم حتى يبلغ فيه منزلة العلماء الذين كرمهم الله وأعلى من شأنهم .

واما الوفاق فبفضل ما غرسه الاسلام فى النفوس من تعلق بالقيم العلمية والمثل الأخلاقية ، ونفور من دنايا الفعال والاقوال . ومن شأن هذا السلوك أن يقضى على روح الشر والأنانية وينمى عوامل المحبة والرغبة فى العمل الجماعى فى سبيل الصالح العام .

وفى هدى الطموح والوفاق سادت روح التنافس السلمى بين طلاب الثقافة الإسلامية وأساتذتها جميعا فى ظل العهود الاسلامية الزاهرة على اختلاف العصر والمكان. فعكف الباحثون والدارسون على دور العلم يثرون عقولهم بما حفلت به من ذخائر المعرفة بمختلف ألوانها ، يجمع بينهم التعاون الحميد وتوحدهم روح العقيدة الاسلامية فتجعلهم اخوة متحابين متصافين متكافلين ، لا سبيل الى الحقد أو الاثرة والعداوة بينهم ، وانما طريقهم حب وسلام وعمل مثمر بناء .

لقد ذابت الفروق وتلاشت الحواجز بين الجميع ، فاجتمع الحجازى والنجدى واليمنى فى صعيد واحد تصل بينهم وشائج عربية واحدة . كما تآلف العراقى والفارسى والشامى والمصرى والمغربى ، وأظلت الجميع راية واحدة وضمتهم شرعة خالدة ، فلم يكن غير الاسلام عقيدتهم والحقيقة رائدهم .

فلا عجب أن تثبت فى ظل هذا التضامن العلمى وتلك الاشتراكية الثقافية بذور أعظم حضارة فى العالم وان تعتبر هذه الوحدة الفكرية نقطة تحول حقيقية فى تاريخ التقدم البشرى .